مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 20 / العدد: 04 / السنة: 2021 ص ص:270-283

مدرسة فرانكفورت وأزمة الحداثة الغربية

The Frankfurt School and the Crisis of Western Modernity

حسان حمون

باحث في علم الاجتماع، (المغرب)، hammoun272@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/13 **تاريخ القبول:** 2021/11/15 **تاريخ النشر:** 2021/12/30

ملخص:

غايتنا في هذه الدراسة حول النظرية النقدية أو مدرسة فرانكفورت، والبحث في مأزق الحداثة الذي كشفت عنه وكذا الطموح الكبير الذي شغل بال روادها الأوائل "ماكس هوركايمر"، "هربرت ماركوز"، "تيودور أدورنو" وآخرين، في اعتبار العقل النقدي المنفتح كاستراتجيات لتجاوز هذا المأزق، والتحول الذي طغى على النظرية ببروز أشكال جديدة للاحتجاج بدل النشاط العقلي المحض خاصة الفن ومختلف تجلياته.

الكلمات المفتاحية: مدرسة فرانكفورت؛ الحداثة الغربية؛ النظرية النقدية؛ العقلانية الأداتية؛ العقلانية النقدية.

Abstract

Our aim in this study about the Critical Theory or the Frankfurt School, is the search for the predicament of modernity that it has exposed, as well as the great ambition that preoccupied its early thinkers, "Max Horkheimer", "Herbert Marcuse", "Theodor Adorno" and others, considering critical reason as strategies to overcome this difficult situation, and the change that has dominated the theory with the emergence of new forms of protest in place of the pure activity of reason, in particular art and its various manifestations.

Keywords: Frankfurt School; Western modernity; critical theory; instrumental rationality; critical rationality.

مقدمة

شكلت مدرسة فرانكفورت أو ما عرف في الفكر الفلسفي المعاصر "بالنظرية النقدية" الإطار المرجعي لأفكار كل الذين انتقدوا قيم الحداثة والتنوير ومثلت منبعا لآرائهم ومواقفهم وإن كانت علاقتهم بها ينتابها التوتر والاختلاف كما يميزها التكامل والتلاقح؛ لقد آلت هذه المدرسة على نفسها كشف القناع عن زيف الادعاءات التي لا طالما روجت لها الحداثة الغربية، وتحولت معها لنبراس لهداية المجتمعات الإنسانية نحو أفق الحضارة المتكاملة والمتنورة المدافعة عن الإنسان وقيمه وكرامته، وحيث يتشكل المجتمع المتنور العادل والمنصف والمنطقي في طريقة تفكيره بعيداً عن أي وصاية من أي نوع، لقد أبانت الحداثة الغربية عن كونها من حيث هي مشروع علمي وتقني، تشكل منعطفاً تاريخياً مفصلياً في خارطة الحضارة البشرية التي امتدت منذ اليونان إلى أوروبا، وأدت إلى نهاية عصر الخرافة والميتافيزيقيا لصالح عصر الإنسان والإنسان وحده، فوراء هذه المظاهر الخادعة تكمن الحقيقة التي يحاول المجتمع الصناعي الرأسمالي المعاصر إخفاءها، وهي أن التطور العقلاني والعلمي الذي انبثق من دور العقل نفسه، يحكمه قانون السيطرة والاستغلال مما خلق وعيا جديدا أطلق عليه أدورنو "الوعي التقني" الذي جعل من العقل مجرد آلة انحرفت عن مسارها الموضوعي وتوجهت إلى خدمة مصالح الشركات الرأسمالية الكبرى والدول الاستعمارية والمؤسسات الدولية المتحكمة في الاقتصاد العالمي والقرار السياسي الدولي.

لقد وجهت مدرسة فرانكفورت سهام نقدها من الوهلة لأولى لفكر الحداثة الشمولي المصاحب للمنجز العلمي/التكنولوجي ودوره في إنتاج مظاهر التسليع والتشيؤ والأداتية والاغتراب والفن المبتذل وانحطاط الوعي نفسه؛ فالنقد في توجه المدرسة هو محاولة جادة لفهم العالم وتغييره عن طريق الكشف عن مكامن القوة والضعف في النظام الاجتماعي وتطوير عقل نقدي واع يرسخ ثقافة التساؤل والإبداع.

سنحاول في هذه الدراسة الوقوف عند أهم الانتقادات التي وجهتها النظرية النقدية لقيم الحداثة الغربية من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ✓ أين يكمن مأزق الحداثة في نظر رواد مدرسة فرانكفورت النقدية؟

- ✓ كيف تحول العقل الأداتي من عقل تنويري إلى عقل لخدمة مشاريع الهيمنة والسيطرة؟
- ✓ ما مظاهر الاستلاب والتشيؤ التي حاولت مدرسة فرانكفورت الكشف عنها؟
- ✓ ما البديل الذي قدمته لتجاوز أعطاب وأزمات الحداثة الغربية؟

أولا: مدخل تعريفي

مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية أو معهد البحوث الاجتماعية، هي مجموعة من التسميات تشير لاتجاه فلسفي وسوسيولوجي ظهر في عشرينيات القرن الماضي بألمانيا، وهو اتجاه يعتمد النقد كآلية تحليلية لمختلف الظواهر الاجتماعية التي انبثقت من رحم الأحداث الكبرى للقرن العشرين، كما أنه يتبنى الفكر الماركسي باعتباره فلسفة ثورية استشرافية، فقد اهتم المعهد في بداياته بالفكر الماركسي ومن بعد بالفلسفة الاجتماعية في إطار تطوير رؤيته النقدية.

تأسس معهد الأبحاث الاجتماعية بصفة رسمية بتاريخ 3 فبراير سنة 1923م بجامعة فرانكفورت، بمبادرة من فليكس فايل F. Weil وفريدريك بولوك F. Pollock وجورج لوكاش G. Lukacs (**بوتومور، 2004، صفحة 37**)، وكان الهدف خلق مؤسسة أكاديمية حرة غير مقيدة بالأنظمة الجامعية ومتفرغة لبحث مشكلات الاشتراكية والرأسمالية والعنصرية وحركة العمال، وقد انظم إليه بعد ذلك عدد من الأعلام الذين ذاعت شهرتهم فيما بعد في الحياة الفكرية والأدبية مثل عالم النفس الاجتماعي والفيلسوف اريك فروم E. Fromm، والناقد الأدبي الماركسي فالتر بنيامين W. Benjamin، وعالم الاجتماع الأدبي ليو لوفنتال، والفيلسوفان تيودور أدرنو Th. Adorno وهربرت مارك H. Marcuse والفيلسوف الاجتماعي ماكس هوركهايمر M. Horkheimer الذي تولى إدارة المعهد من سنة 1930م إلى سنة 1934م، واستمر في الإشراف عليه بعد أن أغلقته السلطات النازية وضمه إلى جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك الأمريكية من سنة 1934م إلى سنة 1950م، ويشكل هؤلاء الثلاثة أبرز منظري النظرية النقدية وممثلي الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت، أما أهم ممثل للجيل الثاني وأشهرهم فهو الفيلسوف وعالم الاجتماع يورغن هابرماس J. Habermas.*(مكاوي، 1993، الصفحات 22-23)*

ويمكن التمييز في التطور التاريخي للمدرسة بين أربعة مراحل أساسية يلخصها توم بوتومور فيما يلي:

- ✓ المرحلة الأولى حتى سنة 1930م في فترة تولي كارل جرونبرغ إدارة المعهد، واتسمت بطابع ماركسي ثوري والاهتمام بنقد الاقتصاد السياسي كما تبدت في أعمال هنريش جروسمان H.Grossmann؛
- ✓ المرحلة الثانية مع ماكس هوركايمر وتميزت بنقد الوضعية والتأثير الإيديولوجي للعلم والتكنولوجيا ونقد قراءات الفكر الماركسي الأرثودوكسية وممارساته التطبيقية،
- ✓ المرحلة الثالثة في المهجر حيث أولى منظرو المدرسة اهتمامهم للقضايا الثقافية المختلفة ومحاور الحياة اليومية المتباينة بوصفها حلقات جديدة يتم بواسطتها وفي ثناياها السيطرة على الإنسان من قبل النظم المتقدم؛
- ✓ المرحلة الرابعة التي تتحدد بانتهاء الحرب العالمية الثانية وعودة المعهد لفرانكفورت، حيث بدأت المدرسة تمارس تأثيرا مهما على الفكر في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

على أنه يمكن، وبدء من نهاية السبعينات ملاحظة محطة خامسة يجسدها يورغن هابرماس الذي حاول بلورة مشروع جديد للتنوير والعقلانية الأوربية، يستعيد به أفكار عصر التنوير الأولى التي استأصلتها النظم الكلية الغربية. ***(بوتومور، 2004، صفحة 24/23)***

أما أهم المنطلقات الفكرية والنظرية التي تأسست عليها النظرية النقدية نذكر:

- ✓ الفلسفة المثالية الألمانية مع جورج فيلهلم وفريدريك هيغل؛
- ✓ الكتابات المبكرة لكارل ماركس خاصة المخطوطات الاقتصادية الفلسفية؛
- ✓ الفلسفات الاجتماعية الألمانية خاصة فلسفة ماكس فيبر؛
- ✓ التحليل النفسي وفلسفة الحضارة عند سيغموند فرويد؛
- ✓ الأفكار الماركسية والهيغلية الجديدة التي عبر عنها كلا من كارل كورش وجورج لوكاش لاسيما فكرة التشيؤ والاغتراب. ***(مكاوي، 1993، الصفحات 23-24)***

وفيما يخص المهام المنوط بالنظرية النقدية انجازها وتحقيقها، فقد حددها ماكس هوركايمر في ثلاثة مهام أساسية وهي:

- ✓ أولها الكشف في كل نظرية عن المصلحة الاجتماعية التي ولدتها وحددتها؛

- ✓ المهمة الثانية للنظرية النقدية عنده هي أن تظل على وعي بأنها لا تمثل مذهبا خارجا عن التطور الاجتماعي التاريخي؛
- ✓ المهمة الثالثة هي التصدي لمختلف الأشكال اللامعقولة التي حاولت المصالح الطبقية السائدة أن تلبسها للعقل، على اعتبار أنها ليست سوى أدوات لاستخدام العقل في تدعيم النظم الاجتماعية القائمة، وهو ما دعاه هوركايمر بالعقل الأداتي. (**بوتومور، 2004، صفحة 207/206**)

ومن أبرز الإسهامات التي قدمتها المدرسة، الدراسة التي نشرها هوركهايمر عام 1937 بعنوان "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" وفي العام نفسه نشر ماركيوز دراسة تحت عنوان "الفلسفة والدراسة النقدية"، وفي عام 1941 نشر ماركيوز باللغة الإنجليزية أهم كتبه "العقل والثورة"، وفي العام نفسه نشر هوركهايمر كتابه "خسوف العقل"، وفي عام 1942 ظهر كتاب فروم "الخوف من الحرية" وفي عام 1944 أصدر هوركهايمر بالاشتراك مع أدورنو كتابا هاما هو" ديالكتيك التنوير". (**حماد، 2003، صفحة 107**)

قام المشروع الفكري للنظرية النقدية على محاولة صياغة نظرية اجتماعية نقدية جديدة لها مفاهيمها الخاصة وميدانها المحدد، كبديل للنظرية التقليدية وعلم الاجتماع الوضعي، وهو ما مكنها من أن تكون فلسفة اجتماعية هدفها نقد المجتمع المعاصر ومؤسساته خاصة الصناعية الرأسمالية، وكذا عقلانيته التقنية وما يرتبط بها من أيديولوجيا جعلت الأفراد يعيشون وضعية استلاب واغتراب داخل مجتمعاتهم الاستهلاكية.

ثانيا: العقلانية الأداتية وأزمة الحداثة

تشكل الحداثة بتداعياتها العقلانية والقيمية والسياسية الموضوع الرئيس الذي اشتغلت عليه مدرسة فرانكفورت منذ بداياتها الأولى، فهي اتجاه نقدي وضع على عاتقه تعرية الوجه الحقيقي للحداثة وإزالة الأقنعة عنه والكشف عن ما وراء المظاهر الأنوارية والعقلانية والتقدمية من أشكال التزييف والتشويه وأساليب الإستعباد والتشيؤ، فالحداثة في نظر مؤسسي مدرسة فرانكفورت ما هي إلا كارثة عظيمة حلت بالإنسانية لأنها خرجت من السياق العام الذي برزت فيه كمدافعة عن الكائن البشري لتتحول إلى أكبر تهديد يواجه هذا الكائن، لقد قامت الحداثة على العقل وآمنت بالحرية والتقدم، لكن ارتكازها على نوع من العقلانية الحسابية والتقدم العلمي/التقني أدى

إلى انزياحها عن أهدافها الكبرى ومبادئها العامة، فبدل أن تحقق السعادة والرفاهية ولدت اليأس والكراهية والتعاسة فحولت الكائن البشري من كيان واع وروح متعالية إلى عضو خاضع وجسم مادي وكيان بلا روح؛ لقد أصبح الإنسان بفعل التقدم الهائل في الأبحاث العلمية والإنتاجات التقنية مجرد رقم ضمن معادلات حسابية هاجسها الربح والنجاح ضدا على الكرامة الإنسانية والأخلاق البشرية؛ "لقد ارتبطت العقلانية التي تبلورت في الفكر الفلسفي الغربي منذ عصر الأنوار باعتباره الإطار المرجعي الفكري والتاريخي للحضارة الغربية بفكرة السيطرة على الطبيعة ثم على الإنسان أيضا بعد تعميم النموذج العلمي–التقني حتى يشمله ويستوعبه، حيث أصبح يعيش الاغتراب والتشيؤ، ففقد حريته واستقلاله الذاتي". (**بومنير، 2010، صفحة 32**)

العقلانية الأنوارية، أي العقلانية التي أفرزتها فلسفة الأنوار منذ ق 18م، هي في جوهرها عقلانية أداتية يشكل فيها العقل أداة تخضع كل شيء لمنطقها الخاص، فمقياس كل شيء وأي شيء هو العقل وعلى ضوئه يمكن تحديد درجة أهمية صلاحية موضوع أو مؤسسة أو نظرية، العقل الأداتي لا منطق له إلا منطق السيطرة وجعل الإنسان سيدا على كل شيء تجسيدا للحلم الديكارتي بأن يكون الإنسان المفكر وفق منهج عقلي رياضي قادرا على الاستحواذ على أشياء الطبيعة وجعلها في خدمته؛ يحاول عقل الأنوار إذن أن يفرض منطقة التقني والاستراتيجي على الواقع المادي بحيث يصبح أي شيء بدون قيمة إلا بخضوعه للمنطق التقني الرياضي، لكن الخطورة الأكبر الذي بات يشكلها عقل الحداثة هو ادعاؤه أن فهم الطبيعة سبيل لفهم المجتمع، لقد أدى هذا التصور الذي بدأ يتبلور مع بروز العلوم الإنسانية إلى تحويل الكائنات البشرية إلى أشياء مادية قابلة للقياس العقلي والاستقراء التجريبي، والنتيجة هي بداية تغلغل التفكير الأداتي في الأوساط السياسة وبروز حلم السيطرة والهيمنة على الأفراد والمجتمعات.وما الاستعمار إلا مظهر من مظاهر عديدة لهذه الرغبة الدفينة رغبة التفوق والاستحواذ.

تجلت المهمة الأساسية للنظرية الاجتماعية النقدية كما عبرت عنها مدرسة فرانكفورت في وضع مشروع حضاري إنساني يسهم في إبراز تناقضات الحداثة والكشف عن عيوبها وتبيان الوجه القبيح لعقلانيتها الأداتية، وجعل الإنسان يدرك حقيقة النزعة التدميرية الكامنة فيها على الطبيعة وعلى الإنسان في نفس الآن، "لقد وجه الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت انتقاداته الحادة إلى

النزعة العلمية المفرطة وأنساقها التي تحولت إلى إيديولوجيات تستند إلى يقين معرفي ومعتقدات إيمانية، فكلها في نظرهم قد غدت أنظمة معرفية مغلقة تعتمد أشكالا تنظيمية جد مقننة للحياة الاجتماعية، وحمالة قيم وسلوكيات تنافح وتدافع عنها من خلال إسقاط آليات فهم الظواهر الطبيعية على الظواهر الاجتماعية". **(مصدق، 2005، صفحة 35)**

لقد ساد الاعتقاد منذ القرن 19م أن المعرفة العلمية التي مكنت الإنسان من فهم الطبيعة وتحقيق نجاحات باهرة في كشف قوانينها، توحي بإمكانية بلوغ نفس النجاحات في فهم الحياة الإنسانية إذا ما طبقت نفس الأدوات التجريبية والمهارات الرياضية للعلوم الطبيعية على الحياة الإنسانية، هكذا تشكلت نزعة مادية وضعية تراهن على تأسيس علوم خاصة للإنسان كامتداد لعلوم الطبيعة، هذه النزعة الوضعية التي أرسى دعائمها السوسيولوجي الفرنسي أوغست كونت A. Comte قامت على إمكانية إخضاع الظاهرة الاجتماعية للقياس والملاحظة والتجريب؛ إن المنطق الرياضي الكمي والملاحظة التجريبية والتي هي الأدوات التي عمد الوضعيون إلى إدخالها إلى الواقع الإنساني شكلت في نظر رواد مدرسة فرانكفورت بداية تحطيم الحياة الإنسانية وتدمير الكائن البشري، لأن التعميم الرياضي والاستقراء التجريبي سيخلق حالة من الاستلاب والتشيؤ، يصبح الإنسان بناء على هذا شيئا ماديا كباقي أشياء الطبيعة، إن تطبيق الأنموذج التجريبي والرياضي على المجتمعات البشرية سيفضي إلى نزع الطابع الوجداني والروح الأخلاقية عنها وبالتالي فقدان الإنسان لإنسانيته، فما يميزه في واقع الأمر عن باقي الكائنات إنما هو الأبعاد الأخلاقية والقيمية، وفي غياب هذه المكونات الضرورية يصبح الإنسان مشابها للحيوان، إن إحدى إسهامات النزعة الوضعية العلموية هي تفتيت الواقع الإنساني الحي، وتجزيء بنياته المركبة والمعقدة، وتفكيك أواصره الروحية والأخلاقية، وتحويله إلى واقع مادي مستلب بدون حرية ولا إبداع معزول عن ملكاته الواعية والإرادية، لقد كانت للنزعة الوضعية كإحدى تجليات الحداثة، نتائج كارثية وآثار خطيرة على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، لذلك نفهم المعارضة الشديدة لمدرسة فرانكفورت لفكر الحداثة وللعقل الأنواري، إن العقل الذي بشرت به الأنوار بوصفه منقذ البشرية من تخلف القرون الوسطى وانحطاط النزعات الميتافيزيقية واللاهوتية تحول في آخر الأمر إلى سبب للشقاء ورمز للعبودية والإخضاع، بسبب هذا العقل المتحكم تحولت القيم العليا إلى قيم مبتذلة تقاس درجة قيمتها تبعا للمنفعة والمصلحة التي باتت تسيطر على الواقع الاجتماعي حيث قيم

الاستهلاك والإنتاجية المفرطة، وهي القيم الجديدة التي يجب الإيمان بها والخضوع لها، فالتنوير الذي أخذ على عاتقه تحرير الإنسان من عبودية العصور الوسطى بتبنيه للقيم العقلانية وللمبادئ التقدمية فشل في مهمته "لأن العقلانية التحررية تحمل في أحشائها نقيضها الهدام الذي انقلب إلى وحش ضار غير قابل للترويض يدوس ويحطم كل من يعترض طريقه، يصوغ الإنسان والأشياء والثقافة والسياسة محولا إياها إلى مجرد سلع للاستهلاك". **(مصدق، 2005، صفحة 54)**

مأزق التنوير يكمن في ذاته، في آلياته وأساليب التفكير لديه، تلك الآليات والأساليب التي كانت تبشر بتصحيح مسار التاريخ البشري قادت إلى البربرية والهمجية، ليعيش التاريخ البشري الحديث والمعاصر في أزمات ومساوئ لا حصر لها، لقد تحولت سيرورة التقدم العلمي والتقني إلى تراجع على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي، العقل الذي ادعى تقويض الفكر الأسطوري تحول إلى أسطورة جديدة، والتقنية التي جاءت لتنقل البشرية من براثن التخلف إلى نعم الحضارة والتقدم أصبحت آلة عظيمة لا تكف عن التشيؤ والاستلاب، تشيؤ الإنسان واستلاب مقوماته الأخلاقية والإنسانية، لقد أراد التنوير"أن يحرر الناس من الخوف ليكونوا أسيادا أنفسهم وأراد أن يحرر العالم من السحر بعد أن رشح نفسه للاضطلاع بهدم الأساطير وتزويد الزمن بالمعرفة"، **(M. Horkheimer et th.Adormo, 1974, p. 21)** لكن مهمة التنوير باءت بالفشل لأن عقلانيته التي استند عليها شكلت أزمة للفكر وللثقافة وساهمت في انسداد آفاق التقدم الحضاري الإنساني، فجدلية العقلانية إنما تبرز في هذا السقوط المدوي للعقل في براثن الأسطورة التي طالما ادعى محاربتها وتخليص البشر من طلاسمها، "فالأسطورة تصبح عقلا والطبيعة وضعية خالصة، ويدفع الناس ثمن تزايد سلطتهم بأن يصبحوا غرباء عما يمارسون سلطتهم عليه، إن العقل يفعل في الأشياء كما يفعل المستبد في الناس فهو لا يعرفهم إلا بمقدار ما يستطيع التحكم بهم". **(M. Horkheimer et th.Adormo, 1974, p. 27)**

ثالثا: العقلانية النقدية وتجاوز مأزق الحداثة

إن النظرية النقدية في معرض تحليلها للواقع الذي أفرزته الحداثة الغربية، لا تهدف من وراء ذلك مجرد توجيه سهام النقد لإنجازات الحداثة، بل سعت إلى نسف الفكر النظري الأنواري وتأسيس فكر جديد ونظرية جديدة للفرد وللمجتمع تتوخى من خلالها إخراج الكائن البشري من التناقضات العديدة التي باتت تطبع حياته وتتوغل في مفاصلها؛ إن الفكر الأنواري في صيغته

الوضعية عجز عن مقاربة المجتمع في كليته لأنه باعد بينه وبين الفرد وانحاز لأطره المادية وبنياته الواقعية على حساب كينونة الإنسان وحريته وكرامته، إن الأساس الذي يوجه النظرية النقدية هو الفكر السلبي المتولد من رحم النقد الموجه للعقل الأنواري، إن صياغة نظرية للمجتمع تقطع مع النظريات السابقة يستلهم التفكير الفلسفي كنشاط إنساني ينزع منه كل لبوس ميتافيزيقي أو أنطولوجي، «النشاط الفلسفي هو النشاط الإنساني الذي تتكون فيه الفلسفة لأن النشاط الفلسفي بالمعنى الدقيق هو نمط من الوجود الإنساني». **(H. Marcuse, 1969, p. 121)**

تقوم النظرية الجديدة على نوع من التكامل بين الفكر والممارسة، فنقد التصورات الميتافيزيقية والأنساق الشمولية والنزعات الوثوقية يحتاج إلى فضح آثارها السلبية على الواقع الاجتماعي، تدل الممارسة على إبراز نقاط الضعف الكامنة في هذه الاتجاهات والعمل على تصحيح المسار العقلاني للتقدم الاجتماعي من خلال ربط النقد بحركة التقدم وإحداث التغيير المنشود بالتزامن مع فهم هموم الأفراد وانشغالهم؛ لذلك نجد "الفلسفة عند أصحاب النظرية النقدية لا تكاد تنفصل كثيرا عن أسئلة العلوم الإنسانية، لأن هدف الفلسفة بحكم كونها نقدية وتسعى إلى صياغة نظرية في المجتمع فإنها تتفاعل مع عطاءات العلوم الاجتماعية"، **(نور الدين افاية، 1998، صفحة 23)** فالفلسفة التي يدافع عنها رواد مدرسة فرانكفورت هي الفلسفة النقدية والعملية في آن، أي الفلسفة التي تحارب وتتبرم من كل نزعة شمولية وتقف بالمرصاد ضد كل إرادة وثوقية وكل نسق يتغذى من العقل الأداتي، وتحاول في الوقت نفسه طرح البديل وتحريك الفكر في اتجاه الإنتاج والإبداع، في هذا الاتجاه لن يكتفي أدورنو وهوركايمر وماركوز وغيرهم بنقد الاتجاهات الوضعية ولكنهم سيوجهون سهام النقد أيضا للهيغلية ووريثتها الماركسية مسلحين بأسلحة النقد الكانطي، والهاجس الذي كان يسكن هؤلاء هو رفضهم المطلق للجدلية الإيجابية، تلك الجدلية التي تتوخى استخلاص وإنتاج الإيجاب الذي هو سقوط في الحتموية في نهاية المطاف.

فالجدل التاريخي الذي يتجه صوب توليد تأكيدات ويقينيات هو سقوط في فكرة الاكتمال والنهاية، في المقابل تتجه الجدلية السلبية نحو تحويل حقيقي يمنع كل ادعاء ببلوغ النهاية أو تحقيق الاكتمال، فحالة السلب لا تخلق وضعا جديدا وتطرح تأكيدا جديدا، وعليه فإن أية نظرية حول المجتمع حسب هذا المنظور مطالبة بتوخي الحذر، "فعلى الرغم أنها تبحث في سبل تجاوز المجتمع،

يجب عليها أن تتحاشى السقوط في فخ أن تصبح إيديولوجيا بدورها أو تتحول إلى صيغة جاهزة للاستعمال". (مصدق، 2005، صفحة 53)

يقوم المشروع الفلسفي لمدرسة فرانكفورت على العقل، لكن ليس العقل بمعناه الإيجابي عقل الأنوار عقل التفكير الأداتي والاستراتيجي والذي أضحى وحشا مخيفا رسم مصيرا أسودا للمجتمعات الحداثية، إن العقل الذي تنطلق منه المدرسة هو العقل السلبي الذي لا يؤمن بالأفكار الجاهزة ولا يدعي بلوغ الحقائق المطلقة ولا تشييد الأنساق الكلية، إنه يكتفي بممارسة النقد والفحص وتوجيه الأسئلة وتحليل المعطيات والظواهر، العقل الذي لا يريد أن يتقوقع داخل ذاتيته ليتعالى عن الأفراد والمجتمعات، العقل الحركي والنشط الذي لا يمل من التفكير والتساؤل وتطبيق آلياته النقدية في جميع المجالات، فهو دائما في حالة مراجعة لمنتوجاته وتجلياته، لقد أرادت مدرسة فرانكفورت إحياء التقليد النقدي الكانطي "كل شيء يتعين إخضاعه للنقد" على حد تعبير امانويل كانط E. Kant، إلا أن انزياح العقلانية عن مسارها النقدي كما دشنته الكانطية وسقوطها في النزعة الوثوقية مع الهيغلية والماركسية والاتجاهات الوضعية ساهم في أزمة الحداثة كما رأينا سابقا، وبالتالي فإن المهمة الضرورية الآن هي إرجاع العقل إلى حضنه الكانطي بوسمه بالروح الإبداعية والتحررية.

يراهن فلاسفة النظرية الاجتماعية النقدية من خلال رد الاعتبار للعقل إلى اعتماد عقلانية منفتحة تستفيد من الجوانب المضيئة في فلسفة الأنوار وتتخلى عن الجوانب المظلمة، عقلانية تنظر إلى العقل لا بوصفه آلة أو أداة ولكن بوصفه نشاطا وممارسة لا حدود لها، وعليه فإن النظرية النقدية هي نظرية منفتحة على كل الإشكالات ومقبلة على كل الاحتمالات، ذلك أن المجتمع يحتاج إلى من يمنحه حقيقته العقلانية أي حقيقته الإنسانية، إن العقلانية النقدية قادرة أن تخرج الفرد من قيود فلسفة الوعي ومن أوهام الأنساق الفكرية الشمولية ومن هيمنة السلطة السياسية؛ تخليص الفرد من الوضع الاستعبادي الذي أصبح يعيش في ظله منذ مدة طويلة هو الشغل الشاغل للنظرية النقدية، لقد تحولت المعرفة وكل أشكال التفكير إلى آليات للإخضاع والتحكم، ويأتي اهتمام رواد مدرسة فرانكفورت بالفرد في سياق التفكير في تناقضات المجتمع المعاصر حيث

الأقنعة العديدة والأشكال والمظاهر الخادعة التي تخفي وراءها المعاناة الحقيقية والتعاسة الأبدية التي يعيشها الإنسان المعاصر.

رابعا: من الممارسة النقدية إلى الاحتجاج الإستطيقي

لم تكتف النظرية النقدية إذن، بمجرد النقد بل عملت جاهدة على تسطير البدائل الفكرية والسياسية والاجتماعية التي بمقدورها مجاوزة مأزق الحداثة ومشكلاتها المتعددة، غير أن اتجاه النظرية لم يسير في ما هو متوقع أي رسم إطار نظري كفيل بالإجابة عن المشكلات المطروحة التي حملت النظرية على عاتقها مهمة التفكير فيها، بل اكتفت بالانزواء في مخيلة الإبداع والفن ليس بوصفه بديلا نظريا ولكن بوصفه نوعا من الحماية التي تكفل عدم الوقوع في براثن العقلانية التقنية المتوحشة، "لقد التجؤوا إلى الفن باعتباره عالما رمزيا يسعف على التحرر من سلطة العقل، فالفن يتضمن عقلانية السلب، والمخيلة ترفض الالتزام بحدود ما يفرضه مبدأ الواقع، وهذا ما يعطي للرفض الجمالي بعده النقدي"، (**نور الدين افاية، 1998، صفحة 44**) الفن بهذا المعنى ممارسة نقدية واحتجاج على ما هو قائم ورفض للهيمنة المفروضة باسم العقل وبسببه أيضا.

العقلانية النقدية إذن، التي يستند عليها عمود التفكير النظري لمدرسة فرانكفورت هي احتجاج جمالي أكثر منه تأسيس لنظرية نقدية للمجتمع الإنساني، وهذا ما يجعلنا نتحدث عن حالة من الانفصام مغروسة في آلية التفكير لديها، ذلك أن مواجهة الواقع في أزماته وتناقضاته يستلزم البحث عن سبل التغيير الاجتماعي وطرح آلياته وأدواته سواء منها الفكرية أو المادية، إلا أن فشل التفكير التحرري الذي دعت إليه وعجز المفكر الناقد عن تحقيق التغيير السياسي المنشود جعل النظرية النقدية ترتمي في أحضان الفن والجمال وتمارس نوعا من التحرر الرمزي الذي يغلب عليه الطابع اليوتوبي أكثر من الواقعية.

إن المحاولة الهامة التي أنجزها رواد النظرية النقدية إنما تتجلى في إنقاذ الفرد كطبيعة واعية وحرة، فالفرد ليس مجرد كائن بشري منفصل عن واقعه، بل هو "وعي بخصوصيته الفردانية بوصفه كائنا يتصرف على هويته الخاصة"، (**M. Horkheimer, 1974, p. 137**) يصبح الفرد من هذا المنظور فاعلا اجتماعيا وسياسيا يسهم في خلق الوضع الاجتماعي والسياسي الأفضل عبر المشاركة والانخراط الواعي والمسؤول في حل مشكلات واقعه وعبر التفاعل الإيجابي في علاقاته البينذاتية.

نخلص في الأخير إلى أن النظرية النقدية عندما فكرت في فكر الحداثة واستنتجت مآلاته المأساوية على الفرد والمجتمع حاولت أن تبني فكرا جديدا ينزع إلى الممارسة العقلانية النقدية تواجه وتعري واقع الحداثة بعقلانيته التقنية الأداتية حيث تحول كل شيء إلى قيم مبتذلة ومعالم مشوهة ورغبات منحطة، غير أن التفكير النقدي للنظرية لم يستطع أن يراوح مكانه لأنه عجز عن تصور البديل النظري القادر على إحداث الرجة المطلوبة في بحر الحداثة، لذلك فإن كل تفكير في نقد عقلانية الأنوار ومادية الحداثة سينطلق ضرورة من النتائج التي انتهت إليها النظرية النقدية وبالأساس من عملية تجاوز الأفق الجمالي الذي انحصرت فيه نحو تأسيس أفق نظري كفيل بتصحيح وتعديل أخطاء وتناقضات الحداثة.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة حول المشروع النقدي لمدرسة فرانكفورت تجاه قيم الحداثة الغربية ونتائجها على الأفراد والمجتمعات المعاصرة، من الممكن الانتهاء إلى الخلاصات التالية:

- ✓ إذا كانت فلسفة الوعي وعقلانيتها الأداتية التي تستند عليها الحداثة، قد حصرت الإنسان في كينونته الفكرية بحيث جعلت منه وعيا مسيطرا على الطبيعة وسيدا عليها، وبالتالي وعيا كل همه الإنتاج التقني والزخم العلمي وكل ما يمكنه من ضمان هذه السيطرة والسيادة، فإن نتائج كل ذلك انعكس سلبا على طبيعته الإنسانية والوجدانية، لقد فقد الكائن البشري قيمه الأخلاقية والروحية لصالح مشروع علمي/تقني أفضى به إلى التماهي مع الوضعية الحسابية والتشيؤية، فتحول إلى شيء وموضوع طبيعي كباقي أشياء الطبيعة وبالتالي الدخول في حالة من الاغتراب والاستلاب عن ذاته الإنسانية كما ترى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت؛
- ✓ إن مواجهة هذه الأوضاع الجديدة التي أفرزتها قيم الحداثة في بعدها الأداتي التقني لا تتحقق إلا باعتماد فلسفة جديدة ذات نفس اجتماعي نقدي، ينطلق من العقلانية الأنوارية نقسها لكن بدون مضمون حسابي أو كمي أو وفق مناهج علمية ديكارتية صارمة، بل من خلال تبني الممارسة الإبداعية المنفتحة على القيم الإنسانية في أبعادها الروحية والأخلاقية، كفيلة بوضع حدود أمام المشاريع العلمية الوضعية

الخاضعة لمنطق الإنتاجية والاستهلاك والتي حولت السلوك البشري لسلوك ذو بعد واحد فارغ من النزعة الإنسانية؛

- ✓ رغم أهمية النقد الذي وجهته النظرية النقدية لفكر الحداثة، فإنها لم تبلور مشروعا فكريا متكاملا يطرح البديل الذي يغني عن مكتسبات الحداثة في مختلف المجالات، لقد بقيت حبيسة النظرة التشاؤمية، واكتفت بتعرية الواقع الإنساني للمجتمعات المعاصرة وإبراز المشكلات والأخطار التي تعصف بالأنظمة الاجتماعية اليوم، وما تشهده من ارتفاع مهول في نسب الجريمة والانتحار والاستغلال وغيرها، إلا أن بلورة مشروع فكري ذي رؤية اجتماعية وسياسية واقتصادية يستند على المنهج العقلي النقدي المنفتح، لم يرى النور بشكل نسقي متكامل إلا مع الجيل الثاني للمدرسة خاصة مساهمات الفيلسوف يورغن هابرماس من خلال نظريته التواصلية، وهو ما جعل الرواد الأوائل يسقطون في نوع من التشاؤم والانخراط في أشكال جديدة من الاحتجاج المستند على النزعات الإستطيقية وكأن الفنون والجماليات والأدب هي أدوات بمقدورها تعويض العقل في صياغة رؤية إبداعية تتجاوز معضلات الحداثة.

إن مدرسة فرانكفورت هي إحدى أهم المدارس الفلسفية والسوسيولوجية في القرن العشرين، لقد أثرت بشكل كبير على العديد من المفكرين، كما كانت مؤثرة في صناعة القرار السياسي الألماني ما بعد الحرب العالمية الثانية في إطار تحقيق المصالحة مع الذات الألمانية التي هشمت الحقبة النازية صورتها أمام نفسها وأمام الآخرين، وإذا كان الرعيل الأول للمدرسة وضع الأسس للمشروع النقدي فإن الرعيل الثاني مع يورغن هابرماس واكسل هونيت وغيرهما أرسوا معالم نظرية اجتماعية متناسقة غايتها إتمام مشروع الحداثة الذي مازال يعد بالكثير من الانجازات للحضارة الإنسانية المعاصرة..

قائمة المراجع:

- ✓ Horkheimer Max et Adorno Theodor (1974), "La dialectique de la raison"،Tr. Eliane Kaufhrolz, Gallimard،
- ✓ Horkheimer Max, «Eclipse de la raison », Ed Payot, Gallimard، Paris

- ✓ Marcuse Herbert (1996), « Philosophie et révolution », Ed. Denoël, Paris.
- ✓ افاية نورالدين (1998)، "الفلسفة والتواصل"، إفريقيا الشرق ، ط 2؛
- ✓ المصدق حسن (2005)، "النظرية النقدية التواصلية"، المركز الثقافي العربي، ط 1؛
- ✓ بوتمور توم (2004) "مدرسة فرانكفورت"، ترجمة سعد هجرس، دار أويا للطباعة والنشر، ط2، طرابلس، ليبيا؛
- ✓ بومنير كمال (2010)، "النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، من ماكس هوركايمر إلى اكسل هونيت"، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر؛
- ✓ مكاوي عبد الغفار (1993)، "النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، تمهيد وتعقيب نقدي"، حوليات كلية الآداب، ح13، الكويت.